



© Reuters/A. Baez

ها هو إعصار إيرما قد هدأ؛ فلنهدأ نحن، ولنعد إلى أنفسنا، ولنعد النظر في مواقفنا؛ فهي مقاييس لمستوى وعيينا واستيعابنا، ما الذي نتعلم - حقيقة - من هذه الحادثة ومن ردود أفعالنا تجاهها؟ هذا سؤال يتوجب علينا الإجابة عليه؛ إذ لا يصح - بعد كل هذه الضجة - أن نمضي وكأننا كنا نعيش أحلاماً ثم استيقظنا (والسلام)! وللإجابة على هذا السؤال نقول ونحن على يقين:

أولاً: إنَّ سَنَّةَ اللَّهِ تَعَالَى فِي أَخْذِ الظَّالِمِينَ مَاضِيَّةٌ لَا تَتَخَلَّفُ وَلَا تَتَبَدَّلُ؛ وَلَكُنَّا لَنْ تَتَحَقَّقَ إِلَّا بِأَيْدِيِّ الْمُؤْمِنِينَ، وَهَذِهِ الْآيَةُ نَصٌّ فِي الْقَضِيَّةِ: (وَلَوْ قَاتَلُوكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا الْأَذْبَارُ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًا وَلَا نَصِيرًا؛ سُنَّةُ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةَ اللَّهِ تَبَدِّيَّا) (الأحزاب 22-23)، وَمَا عَدَهَا مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي تَقْضِي بِأَنَّ سَنَّةَ اللَّهِ فِي أَخْذِ الظَّالِمِينَ مَاضِيَّةٌ لَا تَتَبَدَّلُ وَلَا تَتَحَوَّلُ مَحْمُولَةٌ عَلَيْهَا؛ بِمَا يَفِيدُ أَنَّ أَخْذَ الْأَمَمِ الظَّالِمَةِ الْمُحَارِبَةِ لِلْإِسْلَامِ لَنْ يَكُونَ بِكَوَافِرِ كُوَّنِيَّةٍ مِنْ جَنْسِ مَا أَخْذَ اللَّهُ بِهِ عَادًا وَثَمُودًا وَفَرْعَوْنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ؛ لَأَنَّ وَظِيفَةَ الْأَمَمِ الْإِسْلَامِيَّةِ أَرْقَى مِنَ الْأَمَمِ الْمُسْلِمَةِ الْسَّابِقَةِ؛ (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أَخْرَجْتُ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) (آل عمران 110).

لذلك وجدنا سورة القمر بعدها قصَّتْ عَلَيْنَا بِإِيجَازِ أَخْبَارِ مَصَارِعِ الْأَمَمِ الْغَابِرَةِ ثُمَّ انتَهَتْ إِلَى قُرْيَشِ تَشِيرَ إِلَى الْأَلْيَةِ الْجَدِيدَةِ الَّتِي سُوفَ تَتَحَقَّقُ بِهَا سَنَّةُ اللَّهِ: (أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِنَّكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الرُّبُرِ، أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ، سَيَهْزَمُ الْجَمَعُ وَيُؤْلَوْنَ الدُّبُرَ) (القمر 43-45)، ثُمَّ تَأْتِي الْأَنْفَالُ بَعْدَمَا تَحَقَّقَتِ النَّبُوَّةُ الْقَرآنِيَّةُ فِي بَدْرٍ؛ لِتَعْقِبَ بِمَا يُؤْكِدُ الْحَقِيقَةَ: (كَذَابٌ آلٌ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ) (الْأَنْفَال 52)، فَمَا وَقَعَ لِهُؤُلَاءِ فِي بَدْرٍ عَلَى ذَاتِ السَّنَةِ الَّتِي وَقَعَ بِهَا العَذَابُ لِأُولَئِكَ، غَيْرُ أَنَّ الْأَسْلُوبَ اخْتَلَفَ.

ثانياً: إن الكوارث الكونية لا تكون دائمًا على سنة العقوبة، فقد تكون كذلك، وقد تكون على سنة التذكير، مثل ما ذكره القرآن الكريم عمًا وقع للأمم المكذبة قبل أخذ الله لها: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَّةٍ مِّنْ قَبْلِكَ فَأَخْذَنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ) (الأنعام 42) (وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرَيْةٍ مِّنْ نَّبِيٍّ إِلَّا أَخْذَنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَرَّعُونَ) (الأعراف 94)، وقد تكون لمجرد الابتلاء الذي تتنوع أغراضه وحكمه، ولقد وقع لل المسلمين مثل ما وقع للكافرين؛ إذ تعرضوا كما تعرضوا غيرهم للزلزال والبراكين والعواصف والأعاصير، وليس أدل على ذلك من أن تسونامي (2004) الإعصار الأعنف في التاريخ المعاصر وقع أغلبه في بلد مسلم وكان أغلب ضحاياه من المسلمين.

ثالثاً: إن حربنا ليست مع هذه الشعوب، وإنما مع الأنظمة ومؤسساتها وجيوشها التي تحارب الله ورسوله، وتمارس الفتنة على أرض الله، وتأبى أن يكون الدين لله وأن تكون السيادة لشريعة الله؛ لذلك وضع القرآن للجهاد غاية محددة: (وَقَاتَلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ) (البقرة 193)؛ فيجب أن نفرق في مواقفنا بين هذه الشعوب وأنظمتها، فأمام الأنظمة وما وراءها من قوى ومؤسسات تحركها وجيوش وأجهزة تحرك بها فهي محاربة لله ورسوله يجب جهادها – على تفصيل يطلب من مظانه – ويحرم موالاتها ومظاهرتها، أمام الشعوب فالأمر فيها مختلف.

فهذه الشعوب – من جهة التكيف الذي تبني عليه الأحكام الدينية – كفار، وأمام من جهة موقفهم ومصيرهم في الآخرة فالحكم على أعيانهم موكول إلى خالقهم سبحانه وتعالى؛ ويبقى أمر آخر لا علاقة له بالأحكام الدينية ولا بالمصير في الآخرة، وهو موقفنا منهم من حيث الخطاب والتعامل، فهذا شيء مختلف تماماً، لذلك فرق الآيات تفريقاً حاسماً بينهم وبين من يستحقون المعاداة: (لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبْرُوْهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ، إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوْلُوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) (المتحنة 8-9).

وقوله تعالى: (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلكم...) الآية أي: "لَا يَنْهَاكُمْ عَنِ الإِحْسَانِ إِلَى الْكُفَّارَ الَّذِينَ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ فِي الدِّينِ كَالنِّسَاءِ وَالضَّعْفَةِ مِنْهُمْ" (ابن كثير 8-118) وليس صحيحاً أنها منسوقة بآيات السيف في التوبية؛ إذ لا نسخ بدون دليل، ولا سيما إذا أمكن الجمع، وقد نزلت هذه الآية على سبب رواه البخاري وغيره، فعن عروة بن الزبير قال: أخبرتني أسماء بنت أبي بكر، رضي الله عنها قالت: أتتني أمي راغبةً في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، فسألت النبي صلى الله عليه وسلم: آصلها؟ قال: "نعم" قال ابن عيينة: فأنزل الله تعالى فيها: (لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ) (صحيح البخاري برقم 5978).

وإذا كانت أمُ السيدة أسماء قد استحقت هذا فشعوب أوروبا وأمريكا وأمثالها أحق وأجدر؛ لأن تلك المرأة وأمثالها بلغتهم دعوة الإسلام على أتم وجه وأكمله، أما هؤلاء فأغلبهم لم تبلغهم الدعوة على وجهها الصحيح؛ والله تعالى لا يؤاخذ العباد قبل بلوغ الدعوة الرسالية، وهذا مقتضى قوله تعالى: (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا) (الإسراء 15)، قوله عز وجل: (رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لَنَّا يَكُونُ النَّاسُ عَلَى اللَّهِ حُجَّةً بَعْدَ الرُّسُلِ) (النساء 165)، فهم – وإن لم يكونوا أهل فنرة – إلا أنهم من هذه الجهة فيهم شبه من أهل الفترة، ولو لا ما يجري عليهم ويجب في حقهم من أحكام دينية بمقتضى الشريعة لاعتبرناهم أهل فنرة.

رابعاً: ينبغي لنا أن نتعلم من طريقة تعاطي هؤلاء القوم مع المصيبة؛ كيف أداروا الأزمة بأسلوب علمي؟ وكيف تعاونوا تكافلوا؟ وكيف يتعايش هؤلاء الناس مع الطبيعة وقوانينها بروح المغالمبة والمواثبة؟ إنَّ هذه الروح التي استقوها من عقيدة باطلة لم نستطع نحن أن نستقيها من عقيدتنا الصحيحة، فإذا كان الفكر الحداثي القائم على منازعة الله لسلطانه وسيادته قد أعطاهم هذه الروح؛ فإنَّ القرآن الذي يُعيِّدنا للخالق جلَّ وعلا يجعل من صلب هذه العبودية أن نعمر الأرض وأن نغالب ما فيها من تحديات وصعاب من أجل هذا التعمير الذي هو في حقيقته جزء من العبادة، وهذه الروح تجدها طافية في الآيات القرآنية البايعة: (هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا) (هود 61) (فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ) (الملك 15) (فُلِسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ) (العنكبوت 20) (إِنَّى جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) (البقرة 30) (وَيَاجِعُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ) (النمل 62)، وغيرها من الآيات التي تبعث فينا روح المغالمبة والمواثبة.

وأخيراً، فإنَّ ما أصابنا من إخفاقات لا بدَّ أن يكون له رد فعل على تصرفاتنا، لكن لا يصح أن نطلق العنان لردود الفعل؛ فنظل ننتظر الانتقام الإلهي يقع على المخالفين لنا دون أن نميز بين من يستحقه ومن يستحقه منَ الدعوة والإرشاد ومعها الرحمة والعدل والسماحة، ودون أن يكون منَّا تحرك صحيح لكون ستار قدرة الله في تحقيق وعده لهذه الأُمَّة بالتمكين والنصر. والله تعالى أعلم، وأستغفر الله من كل ذنب.